اختفاء كتاب الأحلام

أحمد الزعبي

... وانتهيت إلى قرار حاسم مريح وهو أن أدوّن في صباح اليوم التالي كلَّ ما علق بذهني من أحلام الليلة الماضية. وقلت إنّ هذا سيخلصني من معاناة تذكّر ما أراه في أثناء النوم عند الحاجة لتذكّره. وقد لاحظت أنّ الأحلام تبتعد في أعماق الذاكرة، ثم تغيب وتتلاشى من الذهن بمرور الأيّام وتكرار الأحلام والكوابيس. قلت في نفسي: «أُسجلها إذن في كلّ يوم حتى إذا ما احتجت إليها لسبب أو لآخر وجدتها مكتوبةً حاضرة». وبمرور الوقت أصبحت أقلّب صفحات كتاب أحلامي وأقارنُ موضوعاته بواقع حياتي، فأستمتع بغرابة المقارنة وأندهش من عجائب المفارقات والمصادفات والمشاهدات ما بيني نائماً حالماً مبعثراً وبيني يقظاً واعياً مبرمجاً. وبالعودة إلى كتاب أحلامي بين الفترة والأخرى بدأت ألاحظ أنّي اثنان، أعني شخصين رئيسيين، وأنّ كلَّ شخص يخفي وراءه، أو يتزعّم فريقاً لا يُحصى من النّاس؛ وأنّ مسائل الاختلاف بين كلّ فريق أكثر من مسائل الاتفاق. فاقرأ أحياناً أني حلمت ذات يوم أنّ لي أباً آخر مثلاً، أو وطناً آخر، أو جدة أخرى، أو أنفاً آخر... وبعد أن أصحو من النوم أجد جميعَ الأمور كما كانت: فأبي هو أبي، وكذلك وطني وجدّتي وأنفي.. إلى آخره. كنت أدوّن مثل هذا الحلم وأتجاوزه وأمضي في حياتي الطبيعية المألوفة.

هببت في صباح هذا اليوم فزعاً مذعوراً لأدوّن حلماً كابوسياً غريباً مذهلاً قبل أن يتبعثر من ذاكرتي، فلم أعثر على كتاب أحلامي. ولقلقي وخوفي وانشغالي بفقدان الكتاب تناثر الحلمُ المذهلُ وتبخّر من رأسي، فلم أستطع أن أكتبه على ورقة أخرى. بحثت عنه في كلّ مكان أتوقّع وجوده فيه، بل في أمكنة أخرى لا تخطر على البال. وسألت من أعرفه ومن لا أعرفه مَن الناس، دون جدوى. حزنت وأطرقت منشغلَ الفكر قلقَ البال، هل ضاع كتاب أحلامي أم سُرق؟ أيضيع وهو إلى جانبي في كلّ صباح؟! أيُسرق وهو لا يباعُ ولا يشترى؟ وغرقت في صمتي وتساؤلاتي وقلقي وحاولت الخروج من دائرة الصدمة والشلل الذهني بتوسيع دائرة البحث وبتحويل المسألة إلى قضية هامّة وكأنّها قضية حياة أو موت. فرتّبت أفكاري، وسلّسلْتُ أحداثَ حياتي بدقّة وتركيز في الساعات الأربع والعشرين الماضية: منذ آخر لحظة رأيت فيها مذكرات أحلامي حتى اللحظة الحاضرة، وانتهيتُ يائساً إلى الإعلان عن سرقة كتاب الأحلام.

ذاع النبأُ بين النّاس، انتقل من الأصدقاء إلى القوم جميعاً، ولفتت القضيةُ أنظار من يهتمّ بالموضوع ومن لا يهتم، وأصبح النبأ حديثَ السّاعة، وانقسم النّاس ما بين متعاطف وهازل، وما بين جادّ متحمّس للحكاية ومستهتر بالمسألة كلّها.

أبلغتُ بالأمر رجالَ الشرطة، وأصحابَ المكتبات العامّة والخاصّة وأهلَ الحيّ جميعاً والباعةَ المتجوّلين – باعة الحلوى والفلافل والترمس والمكسرات والأحذية البالية والأقمشة المستعملة والكتب الرخيصة – ثم أبلغت رجالَ الحدود والجمارك ودور النشر والسفارات ومنظمة اليونسكو ومجلس الأمن ثم زعماء العالم الأوّل والثاني والثالث والعاشر جميعاً. تضخمت المسألة واتّسعت أكثر فأكثر، وتناولتها أجهزةُ الإعلام ومحطّات الإذاعة والتلفزيون والأقمار الصناعية وانشغل العالم كلّه بقضية سرقة كتاب الأحلام. قلت مادامت المسألةُ قد شاعت فإنّها ستنتهي على خير وسيعاد ما سُرق منّي وسأستردّ أحلامي المفقودة.

كنت أنتظر أخباراً من العالم الكبير، وفي الوقت ذاته أكثّف جهدي في البحث عن الكتاب في حارتي ومدينتي وبلدي. ورحت أُسائل عمّالَ التنظيفات وجامعي القمامة وأُتابع خطَّ سيرهم: من اللحظة التي يأخذون فيها كيسَ القمامة من باب بيتي إلى عرباتهم فالسيارات الكبيرة وأماكن تجمّع القاذورات على شكل مزابل كبيرة، ثم أشاهد حرقَ القاذورات ودفنها تحت التراب... كنت أبحث في القاذورات وأتحسّس المحروقات وأنبش التراب والرماد ولا أثر لدفتر أحلامي، فأنتقل إلى الباعة المتجوّلين أقلّب أوراقهم وألحق بالصغار والكبار: أنظر في الأوراق التي تُلفّ بها سندويتشاتُهم أو حلوياتهم أو مكسّراتُهم، علّي أعثر على ورقة من كتابي أو حلم من أحلامي.. ولكن دون جدوى. ومررت بالمكتبات ودور النشر والحانات ومتاجر الأسلحة وساحات الملاهي، وتبعت الرّيح... ولا فائدة. وها أنا حتى هذه اللحظة أنتظر من يأتي، أو يتّصل، أو يخبر بالعثور على كتاب أحلامي.

قال شاهد عيان: «إني أشفقت على هذا الرجل عندما قرأت صدفة في كتاب أحلامه عن أمور غريبة، فسرقته منه. فهو مثلاً يرى في منامه أنّه ليس هو، كما أنّه يرى أنّه ليس في بيته ولا مع أهله، ويرى نفسه يجوب العالم بيدين فارغتين، ويرى نفسه مع فتاة أسطورية، ويرى نفسه يقول شعراً كما يكتبه، ويرى نفسه بلا مرض ولا وجع، ويرى نفسه في البحر في الصحراء فوق الأشجار بين الحقول... ويرى أشياء أخرى.. قلتُ: أُنقذه من جنون لا محالة آت... فسرقت جنونَه، سلبتُ كوابيسه، خلّصته من هلوساته وأحلامه القاتلة، أشفقت عليه.. نعم أشفقت عليه وأخذت كتابه».

وقال شاهد عيان آخر: «إنّ الرّجل تسلّم عدّة برقيات محلية وخارجية تخبره بالعثور على كتاب أحلامه، لكن هذه البرقيات كانت متناقضة: فبرقيةٌ مثلاً تخبره أنّه عُثِرَ على كتابه في عاصمة كبيرة، وأُخرى تخبره بأنّه عُثر عليه في عاصمة صغيرة، وثالثةٌ تخبره بأنّ كتابه وُجِدَ في سرداب للمساجين، وأُخرى تخبره بأنّه وجد في معسكر للجيش، وخامسة تخبره بأنّه وُجد في بعض المدافن والقبور»... فاحتار الرّجل في أمره وازداد أطراقاً على إطراقه وأحلاماً على أحلامه.

وقال شاهد عيان ثالث إنه رأى الرجل يسير في شوارع المدينة الكبيرة يتقدّم حشداً هائلاً من النّاس، يجوبون أحياء المدينة كأنّهم يفتّشون أو يبحثون عن شيء ما وكلّما سألنا واحداً منهم عمّ يبحث، أجاب: عن دفتر أحلامه.

إربد (سوريا)